

## في إلهاب الديبلوماسية

لحضرة صاحب العزة على اسماعيل بك

السكرتير المساعد لوزارة الشؤون الاجتماعية والزراعة

يعبر عن الدبلوماسية منذ زمن قديم بعلم العلاقات الخارجية أو الشؤون الأجنبية أو بمعنى أكثر تحديداً علم أو فن التفاوض أو علم العلاقات أو المصالح المتبادلة بين الدول، أو أنها فن التوفيق بين مصالح الشعوب! . ومهما يكن من التباين في تعريف العلماء لها فإنه يستنبط من معناها أنها عبارة عن ممارسة الشؤون الدولية وتحسس العلاقات الخارجية ورعاية المصالح القومية للشعوب وللحكومات عند اشتباكها سواء أكان ذلك الاشتباك سلمياً أم عدائياً .

و"ديپلوس" لفظ اغريقي معناه مكرر أو مزدوج كما يقال عندنا للنافق مثلاً "ذو وجهين" وما من شك في أن وسائط الدبلوماسية تتألف من كل التناهي لهذا التعبير، لذلك أجمع العلماء على أن لفظ "دبلوماسية" مشتق من كلمة "دبلوماسية" الاغريقية وكلمة ديپلوما مشتقة من فعل "ديپلو" بمعنى يطوى فاندبلوماسية كانت إذن وثيقة رسمية دولية مطوية ذات أصل ونسخة صادرة من ذي سيادة بمنحها امتيازاً .

وأول ورود تلك الكلمة كان في العصور الوسطى فأطلق لفظ "ديپلوماتيك" على أصول الوثائق الدولية. ولما كان موضوع تلك الوثائق هو علاقات بعض الدول ببعض فإن لفظ "الهيئة الدبلوماسية" (Corps diplomatique) اعتبر معناه رجال السياسة المشتغلون بتلك العلاقات . ومدلول الهيئة الدبلوماسية الآن هو كما تعلمون السقراء والوزراء المفوضون والمندوبون والموظفون الذين تتألف منهم البعثات المقيمة في مراكز الحكومات .

والخدمة الدبلوماسية (Service diplomatique) هي المصدر الحكومي الذي يواتي البعثات الدائمة في الخارج بمحاجتها من الموظفين، وسمى ريشيو بأبي الدبلوماسية لأنه أول من نظمها على النحو الذي نعرفه الآن كما سمي تاليران أميراً دبلوماسياً لحذقه ومهارته فيها .

وعلى كل يجب أن يفهم من معنى "ديپلوماسي" أب المقصود به جميع الموظفين العموميين سواء أكانوا من موظفي وزارة الخارجية أم من موظفي السفارات أو المفوضيات أو الوكالات الدبلوماسية وعلى هذا الاعتبار يكون وزير الخارجية دبلوماسياً لما عليه من تبعه سياسية في إدارة ما يتعلق ببلوته من الشؤون الخارجية وما يجريه مع ممثل الدول الرسميين من محادثات ترتبط الدولة بها وما يصدره إلى موظفي وزارته في الخارج من أوامر وتعليمات .

وقد يكون الوزير أحيانا من رجال السلك الدبلوماسي نفسه تربية ومهنة، وقد يكون في أحيان أخرى من رجال السياسة أو المال أو الطب أو الهندسة أو غير ذلك .

سأتناول الآن بتفصيل أوسع مهمات وزير الخارجية لأنه الدبلوماسي الأول في كل بلد ، وبعد سرد مدى ما يقع على عاتقه من الواجبات أشرح شيئا عن الصفات الأولى التي يجب أن تتوفر وأن يتحلى بها الدبلوماسي الطامح في الوصول الى ذلك المنصب الخطير ، ذلك أن كل موظف دبلوماسي في السلك له الحق في هذا الطموح كما لأصغر وكيل نيابة أن يؤمل الوصول يوما ما الى رياسة محكمة النقض والابرار :

### وزير الخارجية هو الدبلوماسي الأول في الدولة :

يظهر أن إدارة الشؤون الخارجية في العصور الأولى كانت تقع على عاتق ملوك والسلاطين أنفسهم ، ولما تمت علاقات الدول الخارجية نمو لم يعد يسمح لرئيس الدولة بمباشرتها بنفسه اضطره ذلك الى تكليف أحد وزرائه للانفراد بها . لذلك حتى علينا لأن أن نسمى وزير الخارجية بالدبلوماسي الأول في الدولة ، فهو يمثل دولته في سياستها الخارجية لدى الدول الأجنبية التي لها علاقة بها ، وعليه وجبات تحددها القوانين والتقاليد ، فالحكومات الأجنبية تتصل به بواسطة وكلائها الدبلوماسيين أو بواسطة الوكيل الدبلوماسي لدى يمثل دوله أو حكومته في عاصمة الدولة الأجنبية .

### واجباته :

ووزير الخارجية هو الذي يوقع المذكرات والمكاتبات الخاصة بالعلاقات الخارجية . وعليه مسؤولية الوثائق التي لها صلة بعلاقات الخارجية ، وشروعات المعاهدات ، والاتفاقيات ، والتفارير ، والمنشورات ، وإعلان الحرب ، وهو الذي يترشح على رئيس الدولة تعيين الممثلين الدبلوماسيين ، ويمد لهم أوراق الاعتماد ، والتفويض المطلق ، ويصدر لهم الأوامر ، وكذلك هو الذي ينصح رئيس الدولة بقبول من يقرح اعتماده لديه ويصدر البراءات للقناصل الأجانب .

وعندما يتقلد الوزارة يبلغ ذلك ممثل الدول الأجنبية الدبلوماسيين كما يسع ممثل دولته المعتمدين في الخارج .

ووزير الخارجية هو الذي يابجا اليه ممثلو الدول الأجنبية في طلب المقتبلات الرسمية لرئيس الدولة ، ويجب عليه أن يبذل قصارى الجهد في التعرف شخصيا بكبار أعضاء سلك الدبلوماسي سواء أكانوا من السفراء أم الوزراء ومن يقوون مقامهم من المعتمدين في بلاده ، أم من ممثي بلاده في الخارج ، ويجب ألا تنسى أن بين أعضاء السلك من التفوت وتبين ما يجعل مجموعهم صالحا لمختلف المهمات ولكن لا ينتظر من كل واحد منهم ان يكون صالحا

لكل مهمة ، فيجب مثلا أن يكون انتخاب الممثل مطابقا لكفائته وقد يوجد من يتفوق طيه ولكنه لا يفي في هذه المهمة المعينة غناه، ومن فوائد التعارف الشخصي بين وزير الخارجية وأعضاء السلك إجراء التقلات براهة وإخلاص وعلى أساس معرفة هؤلاء الأعضاء من كافة الوجوه ، ويجب على وزير الخارجية أن يكون فكرة صحيحة واضحة مستقلة عن علاقة بذه بكل بلد أخرى لذلك كان من المحتم عليه أن ينتهز الفرص لمحادثة وكلائه ومبادلتهم الآراء في ذلك ، ومما يؤسف له أن العادة الحسنة التي كانت متبعة في اليهود الماضية بتزويد الدبلوماسي بالأوامر قبل مغادرته الى مقر عمله الجديد أخذت تبطل في كثير من البلاد .

وفي بعض البلاد يكون وزير الخارجية الوزير الأول (Premier Ministre) أو سكرتير الدولة (Secretary of States) كما هو الحال في الولايات المتحدة أو رئيس الديوان (Clancier) وقد يجمع بين منصبه ومنصب رئاسة مجلس الوزراء فيسمى "الوزير الرئيس" (Ministre Président).

أما في مصر فقد تغير اللقب كثيرا عن ذي قبل ، ففي سنة ١٨٠٥ لقب بوغوص يوسفيان بك "بمدير الأمور الافرنكية" وفي سنة ١٨٥٠ عين ستيقان دميرجيان بك وكيلا "لديوان الأمور الخارجية" وقد ظل اللقب كذلك الى سنة ١٨٦١ حيث عين على ذو الفقار باشا "افلرا للخارجية" وفي سنة ١٩٢٢ عين عبد الخالق ثروت باشا "وزيرا للخارجية ورئيسا لمجلس الوزراء" .

وتختلف سلطة وزير الخارجية باختلاف الدول في نظامها السياسي ، ففي بريطانيا العظمى مثلا جرت العادة بان يمرض على الملك جميع ما يصدره الى الممثلين الدبلوماسيين في الخارج من أوامر مهمة وكذلك صورة مما يرسله هؤلاء الممثلون من التقارير والبرقيات ، وكذلك المذكرات المقدمة في لندن من الممثلين الأجانب ، وهو المسئول عن مفاوضات المعاهدات ، ومراقبة تنفيذها ، وهو المكلف مباشرة بواسطة عملائه بالتصديق على المعاهدات دون رجوع الى السلطة التشريعية الا فيما اذا نصت المعاهدات على فترة مالية .

### صفات يجب أن تتوافر في كل وزير خارجية :

وأني أقتطف شيئا عما قاله تاليران في الصفات التي يجب أن يتحلى بها وزير الخارجية قال . "يجب على وزير الخارجية أن يكون ذا استعداد غريزي يحذره ويمنعه قبل أي مناقشة من أن يتمسك عليه بشيء ، وأن يتحلى برحابة الصدر مع كتمان الأسرار ، وأن يكون شديد الحيطه مع اتهاهرا بطوايح التكليف ، وأن يكون ماهرا في اختيار كل شيء يتصل به حتى دور التاهو التي يرتادها . ويجب أن تكون أحاديثه واضحة تجمع بين ابدعة والتنوع مصبوبة في قلب

من البساطة ، وعلى الجملة يجب عليه ألا ينقطع لحظة واحدة من وقته كله من أن يكون وزيراً للخارجية ، وأعتقد أنه إذا صحت هذه النصائح لوزير الخارجية فهي صحيحة أيضاً لرجال السلك كل في منصبه . واليك بعض ما قاله كاليير في هذا المضمار :

### صفات يجب أن تتوفر في كل دبلوماسي :

”يجب على الدبلوماسي أن يكون شديد اليقظة موفور الجهد بحيث لا تلهيه المسرات ولا تستهلك وقته توافه الملامح . وأن يكون على جانب كبير من حصافة في الرأي تنظف إلى الأشياء على حقائقها وتصل إلى الأغراض من أقرب السبل وأيسرها بحيث لا يضل بها التصق في الهداء ولا تفسدها الخديعة المذمومة المغيبة حتى لا تسام نفوس مفاوضيه ، وأن يكون من ذوي الألمية التي تقرأ ما يجول في الخواطر وتعرف كيف تستغل أقل ما يبدو على الوجوه من الحركات للكشف عن السرائر الخفية . ويجب أن يكون عنياً بالوسائل البتقة المذلة لما يعترض التوفيق بين المصالح التي يكلفها وأن يكون حاضر البديهة فلا تفجأه كلمة غير متظرة إلا أجاب عليها بما هو لائق بها . وأن يكون ماهراً في التخلص من المواقف الخرجة بما يجيب به من كلمات صديده ، وأن يكون الاعتدال صبغته التي تصطبغ بها أقواله وأفعاله ، وأن يكون مظهره طبيعياً هادئاً في شتى الحركات والإشارات ، وأن يكون جميل الصبر حسن الاصغاء لمفاوضيه دائم الانتباه لما يقولون ، وأن تتحلى في استقباله البشاشة والهدوء وفرة الأدب وحسن العادات التي تجذب إليه أنظار المفاوضين وتجمع ميولهم عليه فان التعميس وتقطيب الوجه مدعاة للاستياء والتفسير .

### كتان السر :

ويجب بوجه خاص أن يتحلى الدبلوماسي بضبط النفس ، فيكبح جماح الرغبة في التكلم قبل أن يتروى فيما يقول ، وألا يتعجل في الإجابة قبل التنبصر فيما يلقي إليه ، وأن يتجنب الوقوع في خطأ وقع فيه سفير شهير في هذا العصر وهو أنه لا يلبث إذا نوقض في كلام أو استثير في جدل أن ينساق إلى إذاعة الخطير من أسرار دولته . على أنه يجب عليه أن يتحرز من الوقوع فيما يقابل ذلك الخطأ وهو أن يبالي في الخذر ويشدد في التحفظ فيحيط شخصيته بسياج من الكتمان ويحفظ بين تافه الأشياء وأدق الأسرار ، فانه لا شك من الحق أن يقل ما لغيره من وسائل استطلاع الأخبار وأن التبادي في التحفظ يهدم الثقة المتبادلة التي لا بد منها مع من يتصل به من المفاوضين . فالدبلوماسي الماهر يعرف كيف يحتفظ بالأسرار إلى أن يحين وقت إذاعتها ، ولكن يجب عليه أن يتحين وسائل إخفائها عن مفاوضيه حتى لا تنكشف من حيث لا يدري . وليس ثمة ما يمنع من إظهار الصراحة لهم والثقة بهم وأن يبين لهم علامتها الحقيقية بما لا يعارض خطته إغراء لهم بمعاملته بالمثل في أمور قد تكون أكثر أهمية لديه لأن الدبلوماسيين

نقائري الآراء والمبادئ فلا يؤخذ منهم شيء إلا بقدر ما يعطون منه . وأمهر الرجال من عرف كيف يستفيد من ذلك التفاهم بسعة النظر ولطف الحيلة وحسن التصرف فيتبهر كل ما قد يطرأ من المصادفات لمصلحة مهمته .

### السخاء :

ولا يكفي أن يتصف المعارض بالبحر في العلوم والمهارة في المهنة وما إلى ذلك من محمود الخلال ، بل يجب أن يتضاف إلى ذلك كله نفس كبيرة إذ ليس في العالم منصب أشد حاجة إلى الترفع والتبلى من منصبه الخطير .

وكل امرئ ينظم في هذا السلك وله من المساوي رذيلة يجعل أوجب الوصول إلى عرص غير شرف النجاح ونيل احترام مليكه وتقديره إياه لا يمكن أن يكون إلا امرأ ظاهر القصد ضعيف الأثر ضاراً بسمة مليكه مسيئاً إلى سمعة بلاده .

يجب على الدبلوماسي أن يتحلل بالسخاء والكرم ، على أن يكون ذلك بحسن التصرف ، فيظهر ذلك في حاشيته ومعينه وركابه ، وينبغي أن تتجلى على مآثره مظاهر النظافة البالغة والتوسع وحسن التنسيق وأن يقيم كثيراً من المآدب والمحافل التي يسر بها رجال البلاط المعتمد لديه بل يسر بها المليك نفسه .

### إرضاء الملك والبرلمان :

وعليه أن يفتي عناية واضحة بحضور حفلات المليك أو الرئيس وأن يكون حسن التلطف له ظاهر الاقبال عليه في غير احتجاج ولا جرأة ، وأن يكثر من البشاشة له وحسن المتول أوامره وفصل الآداب معه وإبتغاء مرضاته .

وان كان اندبلوماسي معتمداً لدى دولة (ديموقراطية) وجب عليه أن يحضر جلسات برلمانها ومؤتمراتها وأن يدعو النواب إلى موافقة رغبة مكتسباً بتلطفه وهدايا عطف أحسنهم سمه وأكبرهم نفوذاً للاستعانة بهم في وقف ما قد يطرأ من التدابير التي يضر أقرارها بمصلحة دولته .

### الترحيب بالأهل :

إن الترحيب بأهل البلاد المعتمد لديها الدبلوماسي واحرص على التودد لهم بعينه على معرفة الحوادث والشؤون التي لها صلة بمهامه . وليس السخاء في المآدب من علائم الشرف وحده بل هو مفيد أكبر الفائدة لدولته إذا عرف كيف يستغله فإن من خصائص الموائد أن تقارب ما بين الآراء وأن تبعث على التأخي والتكشف عن نيات القلوب وكثيراً ما تدبج مجالس الود والملاطفة ومرح الحفلات أسراراً خطيرة .

### مؤانسة الضيوف وخصوصاً السيدات :

ويجب على الدبلوماسي ألا يجعل في مؤانسة السيدات ، وأن يبذل جهده في إرضائهن وفي نيل احترامهن ، إذ أن لثقتهن تأثيراً على ما قد ينشأ من مهم القرارات التي تمس مصالح

دونه. على أنه يجب أن يؤمن بأن نجاح هذه الحفلات موقوف على خلوص نيته وصدق رغبته في اجتذاب قلوب مدعويه .

### بذل الهدايا :

ولما كان أفضل السبل الى نيل محبة الملك أن يكون للدبلوماسي مظهر ممتاز يكتسب به الخطوة الخاصة وجب عليه أن يضيف الى جميل خصاله ووداعته ورقته صفات أخرى تمهد له تلك السبل وذلك بالمبالغة في اعداد الهدايا اللائقة في المناسبات اللائقة بشرط أن يصطنع في تقديم هديته من الحذر والتلطف ما يمنع لظن بأنه يقدم هداياه لأغراض خاصة . ومما تحسن مراعاته المكافأة لمن يمدقون فن التقرب من الملوك وتعبيد السبل اليهم أولئك الذين يستضيئون امداد الدبلوماسي بشتى الخدمات في مهمته اذا عرف كيف يحسن اختيارهم وكيف يسيرهم ، فقد رأينا موسيقيين ورسامين وشمراء ومغنيات وصلوا الى الكشف عن أمور عظيمة الشأن في أثناء ترددهم على القصور ، وقد يحدث أن يصطفى الملوك فريفا من اناس ممن لا يرقضون الهدايا اذا عرف الدبلوماسي دقة تقديمها في المناسبات اللائمة .

### جاسوس شريف :

يسمى السفير " الجاسوس الشريف " إذ أن مهمته الأولى تنحصر في استطلاع أسرار ابلاط انعمت لديه ، فهو لا يستطيع أن يقوم بمهمته على الوجه الأكمل إذا لم يرصد لذلك من النفقات ما ييسر عليه جمع المعلومات ممن يمكنها .

### نبذ التواضع والتردد :

والجراحة من الصفات الضرورية التي يجب أن يتحلى بها الدبلوماسي . أما اندي يفليه حياؤه فلا قدرة له على معالجة المسائل الخطيرة وتخور قواه أمام الحوادث المفاجئة ويترتب على استحيائه أن يقتضخ سره بما يبدو على وجهه من أمارات التأثر فيضطرب في حديثه ويؤوّن به ذلك إلى أن يتخذ من الاجراءات ما ينافي مصلحة المسائل التي نيط به إنجازه أو يتخاذل عن اندفاع عن كرامة مليكه إذا هي مست بسوء فن الخوف يفقده الثبات والنشاط اللازمين في هذه الأحوال ويعجزه عن رد الإساءة بذلك الإباء الذي لا يتوفر إلا للرجل لحسور. والتردد بالغ الضرر في ممارسة المسائل الخطيرة ، لذلك يجب أن يتحلى الدبلوماسي بصدق العزيمة والمضاء فيتخذ لنفسه القرارات الحاسمة ويسير في إنفاذها بإيمان قوى بعد أن يوازن بين مختلف التيارات بحزم وحصافة .

### الخداع والتناق ليس من الصفات الدبلوماسية :

ويجب على الدبلوماسي الماهر ألا يعتمد في نجاحه على منح الوعود الكاذبة وبذل الأيمان الخائنة لأن ما تناقله الألسنة من أن الخداع أحد صفات الوزير الداهية هو في الحق خطأ محض ، فالخدعة دليل على صغر نفس الخداع وبرهان على عجزه عن الوصول الى أغراضه من شرف السبل وأدائها على الاستقامة .

### اترفع عن الملاهي :

ولا يتفق الميل إلى اللعب وارتياح الملاهي الطائشة مع ما تتطلبه الأعمال من سهر على تصريفها ، فإن من تزل قدمه بتلك الصفائر من الصعب عليه أن يباشر ما يقتضيه منصبه من الواجبات . ويضاف إلى ذلك أنه مهما يتحفظ لنفسه فن يفلت من أنسنة الناس تعرض به وتتقوّل طيه الأقاويل .

### الكبرياء :

والرجل المتكبر الذي يملك زمام نفسه ويمتاز برباطة جأشه أكثر نفعاً ممن تظهر عليه الخلفة والتصرع والتواضع .  
ومما تضره عليه هذه المهنة أن يكون على الاستماع أحرص منه على التحدث ، وأن يكون رزينا كل الرزانة ، متهمّة ظاهراً أشد التحفظ ، كتوماً لمداق من أسراره ، صبوراً إلى أقصى حدود الصبر .

### العزلة أول عيب :

وطيه أن يعرف أن واجبه ملء وقته بالعمل والنشاط لا بمجرد حبس نفسه في غرفة مكتبه ، وأن يجعل همه الأول الوقوف على ما يحدث حوله بين الأحياء قبل أن يعرف ما سبق أن حدث بين الأموات . ولا يكفي أن يكون ورع الدبلوماسي مظهرها براقاً كالطلاء بل لا بد أن يملأ الورع نفسه ويشمل حياته خاصة وطامة فلا يجعل منزله مثابة لذوى الخلاعة والمجون ممن لا يمدح سلوكهم ولا يأذن بتجاذب أطراف الأحاديث التي تدل على الاستهتار أو الخلاعة في مجلسه أو على مائدته .

ويجب عليه أن يشرب بروح العدالة والتواضع في جميع أعماله ، محترماً للولوك ملائناً لصفاته متطافاً لمن هم دونه وديعاً مؤدباً مستقيماً أمام الجميع .

### التطبع بأخلاق البلاد :

ويجب عليه أن يعود نفسه أخلاق البلاد التي يقيم فيها وعاداتها وألا يظهر الازدراء لها أو الامةعاض منها كما يفعل كثير من الدبلوماسيين الذين يمتدحون عادات بلادهم على الدوام وينقدون غيرها من العادات ولا يعزب عن باله أنه لا يستطيع أن يفهم ببضع من الملاحظات العابرة صادات أمة متأصلة فيحولها كما يهوى . والأفضل له أن يأخذ نفسه بأساليب العيش في ذلك البلد طيلة إقامته فيها .

## نبد التعرض لشكل الحكومة :

ولا يجوز له أن يتعرض لشكل الحكومة بنقد أو أن يعيب ملوك الملك الذي هو معتمد لديه ، بل يجب عليه على العكس من ذلك أن يمدح كل ما هو جدير بالمدح بدون تكلف ولا تملق ذم ، ولا مفر من أن تكون لكل قانون حسنات إلى جانب السيئات فواجبه أن يطرئ الحسن في تلك القوازين وأن يكف عن السيئ فيها فلا ينبس في شأنه ببنت شفة .

## التلطف والملاينة :

ولما كانت مسائل المفاوضات عادة على جانب من التعقيد يعترضها الكثير من الصعاب لما فيها من تضارب المصالح بين ملوك ودول ليس بينها قاض محكم وجب على من يكلف حل تلك المسائل أن يبذل جهده في تقليل تلك الصعاب وتذليلها ولا تكفى في ذلك الحلول التي يتكرها قريحة وحدها ، بل لا بد من قلب مشع بالميل إلى الاتفاق وبالمرونة التي تعرف التفاضى والتسامح أمام الشهوات المتباينة ولأهواء المتعارضة وما قد يرمى به من اتهامات مفاضيه . والرجل المعقد ذو الروح الحامدة والعقلى المجادلة يزيد الصعاب التي تعترض المسائل فينفر بذلك من يقاوضونه ، إذ أنه يبنى صروحا من ذفه الأشياء ويقشبت بمطاب لا تستند إلى أساس صحيح فتكون منها عرقلة سير المفاوضات في كل آن .

قل أن يوجد من الرجال من يعترف بخطئه أو غلظه أو أن يتنازل عن رأيه لمصلحة غيره إذا جوبه بما يناقض حججه مهما تكن المجاهرة قوية منطقية ولكن هناك من الناس من إذا لا ينته بالحجة واتخذت لها صيغة المداهنة والتلطف كان قبوله لها يسيرا ومدوله عن آرائه ممكنا ، لذلك يجب على الدبلوماسى أن يعرف فن الظاهر بتصديق محدثيه فيما يقولون وتلقفه لهم بتبرير موافقهم في الماضى ثم يعرف بعد ذلك كيف يتأتى لهم في بسط الأسباب القوية التي يعتمد عليها رأيه ثم يبرهن لهم على أن هذا الرأى فيه مراعاة لمصلحتهم أولا ، ويجب تجنب المجادلات الحادة والمعاندة في مفاوضة الملوك ووزرائهم ، بل يجب تبسيط الأمور لهم دون تشدد ودون إظهار أن الرأى المعروض هو الرأى الحاسم والكلمة الأخيرة .

وقد أوردنا هذه النصائح خدمة لشباننا البادئين في السلك كي يضعوها نصب أعينهم ويقتدوا بهؤلاء الحكماء العظام ، وفتنا الله جميعا إلى ما فيه خير البلاد ما

على اسماعيل